التلاقح الحضاري بين حواضر المغرب الأوسط والسودان الغربي والأوسط خلال العصر الإسلامي

د. عبد الباسط المستعين

مدير مركز فاطمة الفهرية للأبحاث والدراسات (مفاد) - فاس / المغرب

مع دخول الإسلام إلى شمال إفريقيا؛ بدأ يتسرّب تدريجيّاً إلى أعماق القارة الإفريقية، وتوطدت الروابط بين شمال الصحراء الإفريقية وجنوبها، وتشعّبت العلاقات لتشمل مجالات متعددة، وتوسّعت بمرور الزمن أسباب تمتينها.

ومن ثمّ ارتبط المغرب الأوسط[١] بالسودان[٢] بصلات وثيقة؛ مستفيداً من عدّة عوامل مساعدة، وكانت حواضر كلتا الضفتَيْن هي الحلقة الأبرز في ذلك الارتباط؛ بوصفها الفضاء الرئيس لبوتقة التدفقات الفكرية والاجتماعية والدينية، وغيرها.

فما هي إذاً أهمّ المجالات التي غطتها العلاقات بين حواضر المغرب الأوسط ونظيرتها السودانية، خلال العصرَيْن الوسيط والحديث؟ وما أبرز ملامح الإشعاع الحضاريّ بينهما؟

أولاً: أوجه العلاقة التي نظمت حواضر المغرب الأوسط بحواضر السودان:

١ – اجتماعيّاً:

يمكن اعتبار العلاقات الاجتماعية أمّ العلائق بين المغرب الأوسط والسودان، فهي الأقدم في الامتداد والتداخل، خصوصاً بين الأجزاء الشمالية وعمقها الصحراوي، وذلك بحكم أنّ قسماً كبيراً من القبائل الأمازيغية استوطنت الفضاءَيْن معاً منذ أقدم العصور[٣]، وحتى بعض المجموعات العربية فيما بعد، ومع وصول الإسلام إلى المنطقة تمّ تذليل صعوبات اختراق الصحراء على قساوة ظروفها، ولا شك أنّ العامل الاجتماعيّ والديموغرافيّ كان حاسماً في تسهيل التواصل بين شمالٍ بات إسلاميّاً، وجنوبٍ كان ما يزال على سمته الوثنية القديمة.

ولا يتوقف دَوْر الجانب الاجتماعي في التقارب الناتج عن وحدة العِرْق واللغة، بل يتجاوز ذلك إلى تقارب الطباع والفكر.

وأدّت العناصر المسوفية[٤] دَوْراً بارزاً في هذا الصدد، حيث اختصّت بأدلاء الطرق الذين كشفوا مجاهل المسالك الصحراوية للمتدفقين من الشمال نحو السودان.

٢ – اقتصاديّاً:

هناك مؤشراتٌ عديدةٌ تدلّ على: أنّ الروابط الاقتصادية بين السودان الغربيّ والأوسط[٥] والكيانات الإسلامية بشمال إفريقيا عريقةٌ جدّاً، تكاد تطابق تاريخ الوصول العربيّ إلى المنطقة، وأدّت هذه العلاقات إلى ميلاد شبكةٍ كثيفةٍ من المسالك التجارية بين الشمال والجنوب عبر المجابة (الصحراء) الكبرى.

وبرغم التغيير المستمر للطرق التجارية، وتباين أهميتها من فترةٍ لأخرى، حسب عوامل مرتبطة بواقع الضّفتَيْن؛ تبعاً لقوّة الدول الحاكمة، ومدى قدرتها على تأمين تلك المسالك؛ فإنّ المغرب الأوسط، ومراكزه الحضرية، كانت له حصّةٌ مقدّرة من الطرق المفضية إلى السودان، خصوصاً إبّان قيام إمبراطورية مالي، ومن بعدها صنغي؛ حيث تراجعت أهمية المسالك الغربية المفضية إلى إمبراطورية غانة لصالح المسالك الداخلية، ومنها المحور المؤدي إلى مدينة «ولاتة»، ومنها إلى مختلف مدن السودان.

ويُفهم من كلام ابن بطوطة أنه، بالإضافة إلى هذا المسلك، كان هناك طريقٌ يصل «توات»

---

(١) يُقصد به بشكل نسبيٍّ: معظم أجزاء دولة الجزائر الحالية؛ باستثناء بعض أطرافها الشرقية والجنوبية.

(٢) يُقصد به: مجموع البلاد الواقعة خلف الصحراء الإفريقية الكبرى وما بعدها إلى مشارف غابة السفانا جنوباً، والمحيط الأطلسي غرباً، وبلاد النوبة و "السودان المصري" شرقاً.

(٣) أشار الإدريسيّ إلى عدة نماذج منها، انظر: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، ٢٠٠٢م، (١ / ٢٥ و ٢٧ و ١١٠).

(٤) نسبة إلى «مسوفة»: إحدى القبائل المشكلة للحلف الصنهاجي المستوطن للصحراء الكبرى.

(٥) هذا التعبير حديث، ينصرف إلى إطلاق السودان الغربيّ على منطقتَي نهر السنغال والنيجر، والسودان الأوسط على المنطقة التي تضمّ حاليّاً: جنوب ليبيا وتشاد والنيجر وغرب السودان وشمال نيجيريا وشمال الكاميرون وإفريقيا الوسطى.

بـ «تكدا»[١]، كما ارتبطت تلمسان بالسودان عبر توات[٢]؛ عبر طريقٍ يصل إلى أغدس[٣]، لكن هذا المسلك كان يتعرّض لبعض الصعوبات، أهمّها: إقرار الأمن، لذلــك انتعش زمن الدول الكبرى، وتأثر بوصول القبائل الهلالية، ثم استعاد بعض عافيته في ظلّ حكم بني عبد الواد[٤].

ومن ثمّ؛ يمكن اعتبار المســلك الصحراوي الأوســط، الــذي يمرّ عبــر «ورقلــة»[٥]، أهمّ المســالك الصحراوية التي كان يسيطر عليها المغرب الأوسط، وعبرها ينفتح على السودان.

وتبوأت مدينة «تيهرت» غداة تأسيسها مكانة قاعــدة المغرب الأوســط[٦]، وأهّلها موقعها لأن تســتقبل البضائع «بــرّاً وبحرّاً، وغرباً وشــرقاً، وشمالاً وجنوباً»[٧]، وأن تصبح «ملتقى تجاريّاً مهمّاً بين المغرب الأوســط، وبلاد السودان، والمغرب الأقصى، والأندلس، وإفريقية»[٨]، واستفادت من توثّق علاقة الرستميّين التجارية ببلاد السودان[٩]؛ «ابتداءً من زغاوة شــرقاً حتى ساحل غانة غرباً، لكن هذه العلاقات توطدت بشــكلٍ أساســيٍّ مع شعوب السودان الأوسط، وخاصّة مع الكانم»[١٠]، كما ضمنت «تيهرت» وصول السلع السودانية إلى مدن إفريقية[١١] (المغرب الأدنى).

والأمــر نفســه ينطبــق على «قلعــة بني حماد» إبّان اتخاذهــا عاصمة لإمارة بني حماد الصنهاجيــة؛ إذ كانت تقع علــى طريقٍ للتجارة الصحراويــة يمرّ عبر ورقلــة[١٢]؛ بينما ارتقت مدينة «بجاية» فــي العصر الموحدي إلى صفة «مدينة الغرب الأوســط»[١٣]، يفــد إليها «تجار المغــرب الأقصــى، وتجار الصحــراء، وتجار المشرق»[١٤].

أما مدينة «تلمسان»، فقد عوضت «تيهرت»، وصارت «قاعدة المغرب الأوســط»[١٥]، و«قفل بــلاد المغــرب، وهي علــى رصيــف للداخل والخارج منها، لا بد منها، والاجتياز بها، على كلّ

(١) رحلة ابن بطوطة، دار صادر – بيروت، ١٩٩٢م، ص ٦٩٩.

(٢) شقدان، بسام: تلمسان في العهد الزياني (٦٣٣ - ٩٦٢هـ / ١٢٣٥ - ١٥٥٥م)، رسالة ماجستير - كلية الدراسات العليا / جامعة النجاح الوطنية - نابلس – فلسطين، ٢٠٠٢م، ص ١٩٦.

(٣) الدالي، الهادي: التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء، من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر، الدار المصرية اللبنانية – القاهرة، ط١ - ١٩٩٩م، ص ٣١٧.

(٤) تُطلق على الأسرة الزيانية التي حكمت المغرب الأوسط تقريباً بين ١٢٣٥م و ١٥٥٤م، متخذة من تلمسان عاصمة لها.

(٥) فضلاً عن المسلك الغربي الذي كان يتجه نحو سجلماسة، والشرقي الذي كان يتجه إلى غدامس والجريد. انظر: الهادي، روجي: الدولة الصنهاجية: تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن ١٠ إلى القرن ١٢م، ترجمة حمادي الساحلي - دار الغرب الإسلامي - بيروت – ط١ ١٩٩٢م، (٢ / ٢٩١).

(٦) التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء، م س، ص ٣٠٠.

(٧) الميلي، مبارك: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب - دار الغرب الإسلامي – بيروت، (٢ / ٧٦).

(٨) الطمار، محمد: المغرب الأوسط في ظل صنهاجة، ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر، ١٩٧٧م، ص ١٧٠.

(٩) الحريري، محمد: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي: حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس (١٦٠هـ - ٢٩٦هـ)، دار القلم – الكويت، ط٣ - ١٩٨٧م، ص ٢٣٣؛ إسماعيل، محمود: الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، دار الثقافة - الدار البيضاء، ط٢ – ١٩٨٥م، ص (٢٧٦ - ٢٧٧).

(١٠) الخوارج في بلاد المغرب، م س، ص (٢٨٠ - ٢٨١).

(١١) المرجع السابق نفسه، ص (٢٧٧ – ٢٧٨).

(١٢) بورويبة، رشيد: الدولة الحمادية: تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر، ٢٠١٠م، ص ١٥٠.

(١٣) نزهة المشتاق، م س، (١ / ٢٦٠).

(١٤) المرجع السابق نفسه.

(١٥) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، م س، ص ٧٦.

حالة...»[١]، ومثّلت حلقة وصلٍ تجاريةٍ مهمّةٍ بين مختلف أصقاع المغرب والمشرق من جهة، وبين السودان والأندلس، ثمّ الشمال الأوروبي عبر مينائيها: (أرشقول، وهنين)[٢]، من جهةٍ ثانية.

وصارت بذلك «مقصداً لتجار الآفاق»[٣]، وكان معظم تجارها يتعاملون مع السودان[٤]، ومنها «تخرج القوافل إلى سجلماسة وورقلة، وهما بابا السودان»[٥]، وقد بلغت حظوتها من التجارة الصحراوية إلى أن صرّح السلطان الزياني: أبو حمو موسى الأول: «لولا الشناعة لم أنزل في بلادي تاجراً من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع، ويأتون بالتبر الذي كلّ أمر الدنيا له تبع»[٦].

ومن دلائل ازدهار التجارة الصحراوية مع تلمسان ظهور «شركة آل المقري» التجارية، التي أسّسها خمسة إخوة، هم: (أبو بكر ومحمد بتلمسان، وعبد الرحمن بسجلماسة، وعبد الواحد وعلي بولاتة)، كانوا يتبادلون المراسلات والتقارير حول الأموال والسلع والأسعار[٧]، «فكان التلمساني يبعث إلى الصحراويّ بما يرسم له من السلع، ذاك يرسل له بالجلد والعاج والجوز والتبر، والسجلماسيّ بينهما كلسان الميزان يعرّفهما بقدر الرجحان والخسران، ويكاتبهما بأحوال التجار والبلدان، فاتسعت

شكّل التلاقح العلميّ أحد أبرز ميادين التفاعل الحضاري بين المدن السودانية ومدن المغرب الأوسط في الشمال الإفريقي

أموالهم، وعظم شأنهم»[٨].

كما كانت «ورقلة» منفذاً مهمّاً في التجارة الصحراوية منذ العصر الرستمي[٩]؛ إذ شكّلت المركز الأول لتجارتهم[١٠]، واكتست طابع: «بوابة السودان»[١١]، بوصفها «المعبر الضروريّ الذي تمرّ منه القوافل الحاملة للذهب والعبيد إلى التل القسنطيني»[١٢]، وبها كانت «القوافل المسافرة شمالاً تفرّغ سلعها، وتلك المتجهة جنوباً تتجمع قبل الرحيل»[١٣].

كما كان «سكانها أغنياء جدّاً؛ لأنهم في اتصالٍ مع مملكة أكدز، منهم عددٌ كبيرٌ من التجار الأجانب الغرباء عن البلد، لا سيما من قسنطينة وتونس، يحملون إلى وركلة منتجات بلاد البربر، ويستبدلونها بما يأتي به التجار من

(١) نزهة المشتاق، م س، (١ / ٢٥٠).

(٢) المغرب الأوسط في ظل صنهاجة، م س، ص ١٧٥.

(٣) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، م س، ص ٧٧.

(٤) الوزان، الحسن: وصف إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، ط٢ – ١٩٨٣م، (٢ / ٢١)؛ تلمسان في العهد الزياني، م س، ص ١٩٤.

(٥) تاريخ الجزائر في القديم والحديث، م س، (٢ / ٤٨٣).

(٦) تلمسان في العهد الزياني، م س، ص ١٩٩.

(٧) المرجع السابق نفسه.

(٨) تاريخ الجزائر في القديم والحديث، م س، (٢ / ٤٨٣).

(٩) الخوارج في بلاد المغرب، م س، ص ٢٨١.

(١٠) التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء، م س، ص ٢٩٩.

(١١) الدولة الصنهاجية، م س، (٢ / ٨١).

(١٢) المرجع السابق نفسه.

(١٣) هوبكنز: التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨م، ص ١٦٨.

بلاد السودان»[١]، كما اكتسب أهلها خبرة واسعة في المسالك الصحراوية، وكان منهم أدلاء لتلك الطرق[٢]، وكان لهم دَوْرٌ رياديٌّ في قيادة القوافل التجارية مع غانة.

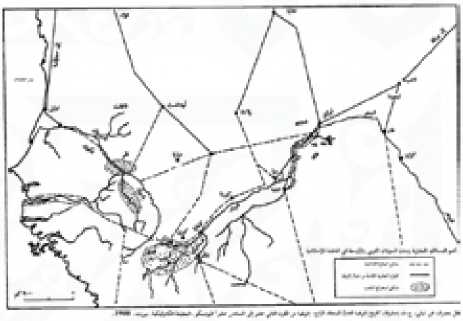

وشكّلت مدن «الزاب»: مراكز تجارية على «خط التجارة الداخلة والخارجة من بلاد السودان؛ الشيء الذي ربط تجارها مع تجار السودان برباط وثيق»[٣]، ومنها: بسكرة والبرج وطولقة والدوسن[٤]، ثمّ نفطة التي كان سكانها من «كبار الأغنياء لوجودهم... على الطريق المؤدية إلى بلاد السودان»[٥].

أما «بادس»: فكانت آخر مدن الزاب شرقاً، وبالقرب منها كانت «تفترق الطرق إلى بلاد السودان، وإلى القيروان، وإلى بلاد الجريد وطرابلس وغيرها... فيها تجتمع الرفاق، ومنها تخرج إلى جميع البلاد»[٦].

كما كان هناك «المسيلة» في العصر الحمادي، وهي تقع على طريق القوافل الواردة والصادرة، من وإلى المشرق والمغرب الأقصى والصحراء[٧]، وارتبطت بتجارة السودان عبر الطريق القادم من ورقلة[٨].

وبدورها كانت «توات»: «ركاب التجار المترددين من المغرب إلى بلد مالي من السودان»[٩]، وصارت «ملتقى طرق... لعددٍ كبيرٍ من القوافل التجارية القادمة من الشمال الإفريقي، والمنطلقة نحو السودان الغربي»[١٠]، وصارت خلال فترة حكم الصنغي في أهمّ طريق للتجارة الصحراوية المنطلق من تنبكت نحو تغازة، فتوات، ثم سجلماسة والمغرب الأوسط[١١]، كما كانت تنبكت تغصّ بالتجار التواتيين[١٢].

وكانت مدينة «الجزائر» من بين المستودعات الكبرى التي توجّه جزءاً من البضائع السودانية نحو أوروبا[١٣]، وكان تجار الجزائر وبجاية يلتقون تجار السودان ببلاد مزاب[١٤].

هذه العلاقات الاقتصادية انبنت على عنصر التكامل بين طرفَي المبادلات؛ بحكم التباين في المؤهلات الطبيعية والاقتصادية للطرفَيْن، وتميّزت بنية المبادلات بهيمنة المواد المصنّعة تصديراً من مدن المغرب الأوسط.

(١) وصف إفريقيا، م س، (٢ / ١٣٦).

(٢) الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، م س، ص ٢١١.

(٣) التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء، م س، ص ٣٠٠.

(٤) وصف إفريقيا، م س، (٢ / ١٣٨ – ١٤١).

(٥) المرجع السابق نفسه، ص ١٣٩.

(٦) الاستبصار في عجائب الأمصار، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد، ص ١٧٥.

(٧) المغرب الأوسط في ظل صنهاجة، م س، (٢١٩ – ٢٢٠).

(٨) الدولة الصنهاجية، م س، (٢ / ٢٩١).

(٩) التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء، م س، ص ٣٠١.

(١٠) المرجع السابق نفسه.

(١١) إفريقيا من القرن الثاني عشر إلى السادس عشر، م س، ص ٢١٤.

(١٢) المرجع السابق نفسه، ص ٢١٥.

(١٣) التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية، م س، ص ١٦٩.

(١٤) وصف إفريقيا، م س، (٢ / ١٣٥).

وكان «القماش التلمساني» - مثلاً - يصل إلى السودان ويلبسه سلاطينها وأغنياؤها[١]، كما كانت تلمسان تصدّر صناعة الخردوات (المناجل، وسكك المحاريث، والأدوات المنزلية؛ من سكاكين وقدور وغيرها)[٢]، والأسلحة، والمصنوعات الزجاجية، والعطور، والقرنفل، والبخور، والتمور، وبعض المنتجات الزراعية[٣]، وكان يصلها من السودان: الرقيق، والذهب، والملح، والنحاس، وريش النعام، وبعض البهارات[٤]، والجلد، والعاج، والجوز...[٥].

ومن دون شك؛ كانت تمور بلاد الزاب[٦] وورقلة[٧] تجد طريقها إلى السودان، كما كانت بعض الأحجار الكريمة بصحراء ورقلة تصل إلى السودان، ويتنافس أهله في اقتنائها بأبهظ الأثمان[٨].

وعموماً: فقد تنوعت وتوطدت الروابط التجارية التي جمعت مدن المغرب الأوسط بالمدن السودانية على مرّ العصور.

٣ – دينيّاً:

تعدّ الدوافع الدينية محرّكاً رئيساً في مختلف التطورات الحاصلة في علاقة المغرب الأوسط بالسودان الغربي.

وقد بدأ الدين الإسلاميّ في الانتشار بالمدن السودانية بشكلٍ خاص[٩]، وكان للتجار الرستميّين دَوْرٌ بارزٌ في هذا الصدد[١٠]، خصوصاً بالأجزاء الوسطى: بلاد الكانم[١١]، وربما يكون بعض ملوكها قد اعتنق الإسلام على أيديهم[١٢].

هذا التأثير الدينيّ ساهمت فيه كلّ الطوائف التي كانت على صلةٍ دائمةٍ بسكان المنطقة، من علماء وتجار ودعاة، بحواضر المغرب الأوسط، ونستحضر هنا بالخصوص التجربة البارزة للمغيليّ الذي قام بدَوْرٍ كبيرٍ في نشر الإسلام في صفوف أهل السودان، خصوصاً في حاضرتَي: «كانو» و «كاتسنا»[١٣].

٤ – سياسيّاً:

برغم أنّ المعطيات المصدرية لا تسعفنا في تقصّي التأثير السياسيّ بشكلٍ مفصّل، وبرغم أنّ الدلائل على العلاقات السياسية بين المغرب الأوسط والسودان نادرة؛ فإنها مع ذلك غير منعدمة.

ولعلّ أقدم إشارة في هذا الباب ترجع إلى العصر الرستمي؛ إذ «أرسل أفلح بن عبد الوهاب (٢٠٨ - ٢٥٨هـ / ٨٢٣ - ٨٧٢م) ثالث الأئمة الرستميّين: سفارةً تحمل هدية إلى أحد ملوك السودان، وكان الذي تقدّم هذه السفارة إلى الملك السوداني: محمد بن عرفة؛ أحد الوجوه

(١) تلمسان في العهد الزياني، م س، ص ١٨٧.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ١٨٨.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص ١٩٩.

(٤) المرجع السابق نفسه.

(٥) المرجع السابق نفسه.

(٦) نزهة المشتاق، م س، (١ / ٢٠)؛ التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء، م س، ص ٣٨.

(٧) الدولة الحمادية: تاريخها وحضارتها، م س، ص ١٥٠.

(٨) الاستبصار، م س، ص (٢٢٤ – ٢٢٥).

(٩) الشكري، أحمد: الإسلام والمجتمع السوداني - إمبراطورية مالي: ١٢٣٠ - ١٤٣٠م، المجمع الثقافي - أبو ظبي، ١٩٩٩م، ص (٢٨٨ – ٢٨٩).

(١٠) الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، م س، ص ٢١٢.

(١١) الخوارج في بلاد المغرب، م س، ص ٢٩٩.

(١٢) المرجع السابق نفسه، ص ٣٠٠.

(١٣) بانيكار، مادهو: الوثنية والإسلام: تاريخ الإمبراطوريات الزنجية في غرب إفريقية، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، ط٢ - ١٩٩٨م، (٢ / ٤٩٦).

البارزة في البلاط الرستمي»[١].

وقد تلقّى بنو زيري بدَوْرهم بعض الهدايا من بلاد السودان، منها واحدة حوالي (٣٨٢هـ / ٩٩٢م)، وأخرى سنة (٤٢٣هـ / ١٠٣٢م)[٢].

وارتبطت إمارة كانم السودانية بعلاقات وثيقةٍ بالحفصيين[٣] الذين كانوا يبسطون نفوذهم على شطرٍ مهمٍّ من المغرب الأوسط آنذاك، وتبادل الطرفان السفارات والهدايا[٤].

وقد ربطت صداقةٌ وثيقةٌ بين منسى موسى سلطان مالي، وهلال القطلاني حاجب عبد الرحمان أبو تاشفين الزياني[٥].

وذكر ابن خلدون أنّ إمارة صنهاجية بطرف الصحراء اتخذت من «تكرت» مقرّاً لها، كان بينها و «بين أمير الزاب وواركلا مهاداة ومراسلة»[٦].

وعلى مستوى آخر؛ نستشف تلك الأدوار السياسية من المهمّة التي اضطلع بها المغيليّ (ت٩١٢هـ) في أوساط الإمارات السودانية، والتي وصلت إلى حدّ تعبئة الجيوش للجهاد، وتوسيع الفتوحات؛ حيث تمكن من الحصول على منصب مستشارٍ في بلاط أسكيا محمد، أحد ملوك إمبراطورية صنغي[٧].

ثانياً: مظاهر التلاقح الحضاري بين حواضر المغرب الأوسط وحواضر السودان:

١ - على المستوى العلمي:

شكّل التلاقح العلميّ أحد أبرز ميادين التفاعل الحضاري بين المدن السودانية ومدن المغرب الأوسط. ونسجل هنا حضور علماء هذه المراكز العلمية، وكان لبعضهم أثرٌ بيّنٌ في الحياة العلمية بالسودان.

لقد كانت الحواضر السودانية، مثل تنبكت، ترتبط ثقافيّاً بمختلف حواضر العلم والثقافة في الشمال الإفريقي، ومن ضمنها بعض حواضر المغرب الأوسط كتلمسان[٨]، وإذا كانت تلمسان لم تزل «داراً للعلماء والمحدّثين وحملة الرأي على مذهب مالك بن أنس...»[٩]؛ فإنّ ابن بطوطة ذكر بأنّ أحد أبناء ابن شيخ اللبن التاجر التلمساني «من الطلبة؛ يعلّم القرآن بمالي»[١٠]؛ مما يُبرز بشكلٍ جليٍّ أحد أوجه الإشعاع العلميّ لتلمسان بأرض السودان.

ويبقى المغيليّ من بين علماء المغرب الأوسط الأشدّ تأثيراً في المنطقة، أخذ عنه بتكدة كلٌّ من: العاقب بن عبد الله[١١]، ومحمد بن أحمد التازختي[١٢]، واعتُمدت بعض كتبه لدى فقهاء السودان، مثل أرجوزته في المنطق[١٣].

(١) الإسلام والمجتمع السوداني، م س، ص ٢٥٩.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ٢٦٠.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص ٢٦٣.

(٤) المرجع السابق نفسه.

(٥) تلمسان في العهد الزياني، م س، ص ٢٠٠.

(٦) ابن خلدون: "ديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، دار الفكر - بيروت، ٢٠٠٠م، (٦ / ٢٦٩ - ٢٧٠).

(٧) برايما باري، عثمان: جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي، دار الأمين للنشر والتوزيع - القاهرة، ط١ - ٢٠٠٠م، ص ٢٢؛ التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء، م س، ص ١١٣.

(٨) الفيتوري، عطية: دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء (مرحلة انتشار الإسلام)، منشورات جامعة قار يونس - بنغازي - ط١ - ١٩٩٨م، ص ٢٩١.

(٩) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، م س، ص ٧٧.

(١٠) رحلة ابن بطوطة، م س، ص ٦٩٠.

(١١) التنبكتي، أحمد بابا: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب - مطبعة فضالة - المحمدية، ٢٠٠٠م، (١ / ٣٧٧).

(١٢) المرجع السابق نفسه، ص ٢٢٣؛ الوثنية والإسلام: تاريخ الإمبراطورية الزنجية في غرب إفريقية، م س (٢ / ٥١٤).

(١٣) كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، م س، (١ / ١٣٨)، (٢ / ٢٣٤).

كمــا كان بتنبكت عددٌ مــن علماء المغرب الأوســط، مثل أبي القاســم التواتي الذي تولّى الإمامــة بمســجد تومبوكتو[١]، وأشــرف على محضر يقرأ فيه الأطفــال[٢]، كما كان «معيار» الونشريســيّ معتمداً فيما يُقرأ ويُدرّس بتنبكت والسودان[٣]، إلى جانب بعض مؤلفات المقري[٤].

وقد بلغ من نضج علماء أهل الســودان أنّ علماء تلمسان كانوا «يشــاورونهم في المسائل العلمية والقضائية»[٥].

لا شك إذاً في أنّ مظاهر التأثير والتأثّر العلمي، الأخذ والعطاء، متعدّدة بين علماء الحواضر السودانية ونظيرتها بالمغرب الأوسط، يتعذر استقصاؤها، وقد اكتفينا بما جادت به بعض المصادر في هذا الشأن.

أهم مدن المغرب الأوسط التي كانت دائمة الصلة بمدن السودان في الحقبة الإسلامية

(١) دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء، م س، ص ٢٩٢.

(٢) السعدي: تاريخ السودان، طبع هوداس بمشاركة بنوة - المدرسة الباريزية لتدريس الألسنة الشرقية - باريس مطبعة بردين – انجى، ١٨٩٨م، ص ٥٨.

(٣) كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، م س (٢ / ٢٤٠).

(٤) التــاريخ السياسي والاقتصــادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء، م س، ص ٨٠.

(٥) دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء، م س، ص ٢٩٣.

٢ - على المستوى المذهبي:

كلّ التطــورات الدينيــة والمذهبيــة في شــمال إفريقيــا كانــت تجــد صداهــا في الســودان، فمثلاً ســيطرت الدولة الرستمية ذات المذهب الخارجــيّ الإباضيّ إبّان قيامها علــى معظم المنافــذ المؤدية إلى الســودان، كورقلة وغدامس[٦]، ففي عصر الإدريســي (ت ٥٥٩هـ) كان أهل ورقلة مــا يزالون يحتفظون بمذهبهم الإباضــي[٧]، وكانوا على صلة دائمة بأرض السودان «لبيع تمور سجلماسة والزاب، و (يُخرجــون منهــا التبر، ويضربونه باســم بلدهم»[٨].

وإذا أضفنــا لها أهل «تاهرت»، وغيرهم من أهل «جبل نفوسة»، نفهم لِمَ وجد ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ)، سكان مدينة زاغري، التي تلي ولاتة في اتجاه مالي عاصمة سلطنة مالي، منقسمين إلى طائفتَيْن من البيضان: الأولى تُدعى: «صغنغو»، وهــم خوارج إباضية، والثانيــة تُدعى: «توري»، وهم سنّة مالكية[٩].

ويبقــى أبرز تأثيــرٍ هو: انتقــال المذهب المالكي، بعد رســوخه بالمغرب الإسلامي، إلى ربوع الســودان بفضل الفقهــاء المغاربة، ومن ضمنهم مالكية المغرب الأوســط، وأشــهرهم المغيلي.

٣ - على المستوى الروحي:

بعد انتشــار الطرق الصوفية بــكلّ أرجاء المغرب الإســلامي؛ بدأت الصوفية تتســرب إلى أصقاع الســودان؛ حيــث وصلت «الطريقة

(٦) المرجع السابق نفسه، ص ٢١٠.

(٧) نزهة المشتاق، م س، (١ / ٢٩٦).

(٨) الدولة الصنهاجية، م س، (٢ / ٢٩١).

(٩) رحلة ابن بطوطة، م س، ص ٦٨٠.

القادرية» هناك عبر «توات» منذ القرن ١٥م[١]، أو مطلع القرن ١٦م[٢].

ويعد محمد بن عبد الكريم المغيليّ أول مَن أدخلها إلى بعض أجزاء الصحراء الكبرى والسودان الأوسط وشمال نيجيريا[٣] (الهاوسا). بينما ساهم سيدي أحمد البكاء الكنتي، خلال القرن ١٥م، في نشر مبادئها في الجزء الغربيّ من الصحراء الكبرى[٤]، ثم اتسع انتشار القادرية على يد الشيخ سيدي المختار الكبير الكنتي «الذي عاش في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، ما بين ولاتة وتمبوكتو وتوات»[٥]، ثم الشيخ التأرازي الذي أدخلها إلى ما يُعرف حاليّاً باسم: غامبيا وليبيريا وغانا وغينيا بيساو[٦]، وبعده عثمان دان فوديو[٧].

ومن أبرز مدارس التصوّف التي نشأت بالمغرب الأوسط، وكان لها حضورٌ كبيرٌ وانتشارٌ واسعٌ بغرب إفريقيا ووسطها: الطريقة التيجانية التي أصبح لها حضورٌ كبيرٌ خلال القرن ١٩م[٨]، وعُرفت بميولها العسكرية[٩]، وكان لها دورٌ مهمٌّ في مواجهة التغلغل الاستعماري الأوروبي، وأبرز نموذج لذلك: «المجاهد التيجاني الحاج عمر الفوتي التكروري الذي توفي عام ١٨٦٤م»[١٠].

ومن ثمّ ارتبط انتشار الإسلام واعتناقه في غرب إفريقيا في القرون المتأخرة بالطريقتَيْن «القادرية» و «التيجانية»، وأضحى «كلّ مسلم يتّبع واحدة من الطريقتَيْن»[١١]، ومن غير العادي أن «يكون مسلماً غير منتسبٍ لإحدى الطرق الصوفية الكبرى»[١٢].

كما كان للزاوية السنوسية، هي الأخرى، نصيبٌ واضحٌ في الانتشار، ونشر الإسلام بالسودان، منذ أن أسّسها الشيخ سيدي محمد بن علي السنوسي سنة ١٨٣٧م[١٣]، والذي ينحدر من مدينة مستغانم بالجزائر[١٤].

٤ - على المستوى الثقافي:

لقد صار للحضارة الإسلامية تأثيرٌ واضحٌ في المجتمعات السودانية، دلّت عليه عدة مؤشرات،

---

(١) المسلمون في غرب إفريقيا، م س، ص ٤٣؛ ذهني، إلهام: جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي (١٨٥٠م – ١٩١٤م)، دار المريخ للنشر - الرياض – ١٩٨٨م، ص ٣١؛ القادري، عبد القادر: الزاوية القادرية ودورها الديني والاجتماعي، ضمن مجلة دعوة الحق - إصدارات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب - العدد ٢٠٢ - ١٩٧٩م، ص ٤٨.

(٢) تاريخ غرب إفريقيا، م س، ص ٢٨٧.

(٣) المسلمون في غرب إفريقيا، م س، ص ٤٤.

(٤) المرجع السابق نفسه.

(٥) الزاوية القادرية ودورها الديني والاجتماعي، م س، ص ٥١.

(٦) المسلمون في غرب إفريقيا، م س، ص ٤٤.

(٧) هو عثمان بن محمد، ويلقب بفودي، (١١٦٩هـ / ١٧٥٤م – ١٢٣٢هـ/ ١٨١٧م). وُلد بقرية تقع شمال دولة نيجيريا الحالية، نشأ في أسرة علمية، وتشبّع بمبادئ التصوف على طريقة الشيخ عبد القادر الجيلاني. اشتغل بالتدريس، ودفعه انحراف مجتمعه الهوسا، الذي كان يعج بمظاهر الوثنية والشرك، وابتعاد المسلمين عن تعاليم دينهم الصحيحة إلى تزعم حركة إصلاحية ابتداءً من سنة ١٧٩٤م، انبثقت عنها إمبراطورية إسلامية كبرى.

(٨) تاريخ غرب إفريقيا، م س، ص ٢٨٨؛ المسلمون في غرب إفريقيا، م س، ص ٤٣؛ جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا، م س، ص ٣١؛ دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء، م س، ص ٢٣١.

(٩) تاريخ غرب إفريقيا، م س، ص ٢٨٨؛ المسلمون في غرب إفريقيا، م س، ص ٤٥.

(١٠) المسلمون في غرب إفريقيا، م س، ص ٤٢.

(١١) المرجع السابق نفسه، ص ٤٣؛ جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا، م س، ص ٣١.

(١٢) زبادية، عبد القادر: دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب والمسلمين، ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر، ص ٢٢٥.

(١٣) جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا، م س، ص ٣٣؛ انظر أيضاً: المسلمون في غرب إفريقيا، م س، ص (٤٥ – ٤٦).

(١٤) انظر نتفاً من حياته في: دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء، م س، ص ٢٣٧؛ المسلمون في غرب إفريقيا، م س، ص ٣٢٣.

من بينها مثلاً: التحول إلى ارتداء الملابس بعدما كانت منهم طوائف عراة، وآخرون يسترون عوراتهم بالجلود المدبوغة[١]، وقد كان للتجار الرستميين أثرٌ في أهالي كوكو من أرض السودان، في «سلوكهم، وملبسهم، وطرق معيشتهم»[٢].

كما بدت على أهل السودان بعض مظاهر التأثّر على مستوى الأعياد والمناسبات الدينية، وقد نقل لنا ابن بطوطة أجواء إحياء منسى سليمان ليلة السابع والعشرين من رمضان، وتوزيع الزكاة أثناءها[٣]، وإحيائه لشعيرة صلاة عيد الفطر والأضحى[٤]، بما يفيد انتقال معظم هذه العوائد من الشمال الإفريقي، وتطعيمها باللمسة المحلية.

كما تزامن انتشار اللغة العربية بالسودان مع وصول الدين الإسلامي[٥] إلى المنطقة، وصارت اللغة الأساسية في التدريس وتداول العلوم المختلفة، كما كانت لغة الخطابة والقضاء، واللغة الرسمية للدول القائمة في الكتابة والمراسلات، واعتُمد الخطّ المغربي في الكتابة، وانتشرت الأسماء العربية في صفوف أهل السودان.

وكانت تنبكت «المركز الحيوي للثقافة الإسلامية»[٦]، وضمّت «المباني المشيدة من الطوب»[٧] التي عوضت «خيام مدينة غانة وأكواخها من الحشائش»[٨]، وتفيد بعض الروايات باستقدام السلطان منسى موسى لمهندس من غدامس، هو: عبد الله الكومي الموحدي[٩]، الذي يتبيّن من اسمه أنه ربما ينحدر من المغرب الأوسط. كما أدخل التجار والحرفيون المسلمون استعمال الحجارة في البناء[١٠]، ونقلوا تقنية البناء المستخدمة في بناء سور مدينة مالي المعتمِد على تقنية التراب المدكوك[١١] (الطابية)[١٢]، ومن ثمّ دخول نمط العمارة المغربية الأندلسية، وغيرها من المؤثرات الحضارية.

كلّ ذلك صاحب توافد التجار والعلماء وغيرهم إلى السودان من مجموع دول شمال إفريقيا، مما يدل قطعاً على أنّ للمغرب الأوسط، إلى جانب باقي أجزاء المغرب الإسلامي، دَوْراً في ذلك الانصهار الحضاريّ والامتزاج الثقافي.

خاتمة:

حاولنا من خلال هذه الورقة أن نرصد في عجالة: أهمّ ملامح الوصال الحضاريّ التاريخيّ بين حواضر المغرب الأوسط ونظيرتها بالسودان، وتبيّن لنا مدى قوة تلك الصلة، وامتدادها التاريخيّ الطويل؛ مما يستدعي استثمار هذا الرصيد التاريخيّ لإحياء ما اندرس من روابط بين مختلف أصقاع العالم الإسلامي عموماً، وبالغرب الإسلامي خصوصاً، فضلاً عن تجديد وتعزيز علاقة البلدان المغاربية بأقطار إفريقيا جنوب الصحراء، في عالمٍ يتجه نحو التكتل في مجموعات إقليمية ■

(١) نزهة المشتاق، (١ / ٢٢ و ٢٨ و ٣٠ و ١١١).

(٢) الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، م س، ص ٢١٢.

(٣) رحلة ابن بطوطة، م س، ص ٦٨٣.

(٤) المرجع السابق نفسه، ص ٦٨٦.

(٥) الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، م س، ص ٢١٣.

(٦) جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي، م س، ص ١٢.

(٧) ويدنر، دونالد: تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، ترجمة راشد البراوي، دار الجيل للطباعة – الفجالة، ١٩٦٢م، ص ٤٧.

(٨) المرجع السابق نفسه.

(٩) التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء، م س، ص ٦٢.

(١٠) الوثنية والإسلام: تاريخ الإمبراطورية الزنجية في غرب إفريقية، م س، (٢ / ٤٨٨).

(١١) إفريقيا من القرن الثاني عشر إلى السادس عشر، م س، ص ١٤٩.

(١٢) انظر حول هذه التقنية: ابن خلدون: "مقدمة ابن خلدون"، دار الفكر – بيروت، ٢٠٠١م، ص (٥١١ – ٥١٢).